أعلاق أندلسية
إشبيلية (٤)

سلسلة مؤلفات الإمام
أبي بكر ابن العربي (٤)

سراج المريدين في سبيل الدين

لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات
الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية
وهو القسم الرابع من علوم القرآن في التذكير

إملاء

إمام الأئمة وزين الملة الفقيه الحافظ النظار
أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المعافري الإشبيلي
المتوفى ٥٤٣هـ

ضبط نصه وخرج أحاديثه ووثق نقوله
الدكتور عبد الله التوراتي

السفر الأول

دار ابن حزم

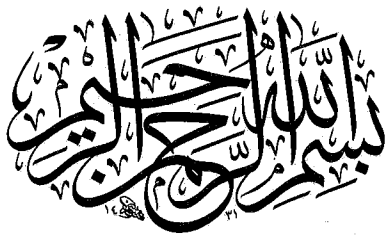
بسم الله الرحمن الرحيم

كَتَبَ الفَقِيهُ الإمامُ الحافظُ القاضي أبو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بن عبد الله بن محمَّد ابن العَرَبِي رضي الله عنه:

من مُحَمَّدِ بن العَرَبِي إلى زُمْرَةِ المريدين، ولُمَّة الطَّالبين السَّالكين في سَبِيلِ الدِّينِ، والمُتَوَجِّهين إلى الحَقِّ المُبِينِ؛ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ؛

أمَّا بَعْدُ:

فإنِّي أَعِظُكم بواحدة؛ وهي أن تُصْغُوا إليَّ مُبْتَدَأً ومُنْتَهًى، فإن الذي أُورِدُه عليكم وأَجْلُوه لديكم[1] عَقَائِل النُّهَى، أُبْرِزُهَا في مِنَصَّةِ العقائد والأعمال، وأَنْظِمُ لها صفات الهُدى والضلال، والاجتهاد والإِكْسَالِ، على وَجْهٍ يأتي عليه الشَّرْحُ والإجمال[2]، حَسَبَ ما تقتضيه الحال، وإنِّي وإن لم أَكُن مُتَحَلِّيًا بما أُورِدُه، ولا ضابطًا على ما أَعْقِدُه، فإنَّ لي قُدْوَةً في شيخنا[3]

---

(١) في (ص): عندكم.

(٢) في (ص): أو الإجمال.

(٣) في (ص): بشيخنا.

أبي عَلِيٍّ الحَلَبِي[١]؛ خَطِيبِ المسجد الأقصى - طهَّره الله[٢]-، حَضَرْتُ عند جُمُعَةٍ فيه؛ وقد عَلَا على أعواد منبره فخَطَبَ:

«الحمد لله الذي تفرَّد دون خَلْقِه بمِلْكِ الدنيا والآخرة، وغَمَرَ برِزْقِه كلَّ نَفْسٍ بَرَّةٍ وفاجرة، ثم ردَّهم بعد ذلك في[٣] الحافرة، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، أَحْمَدُه على نِعَمِه المتوافرة، وأَشْكُرُه[٤] على آلائه المتظاهرة، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادةً باطنة ظاهرة، مَرْحُوضَةً عن دَنَسِ الشَّكِّ طاهرة، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، رَدَّدَه بين الأرحام المُحْصَنَةِ والأصلاب الفاخرة،

---

(١) ترجمه ابنُ العديم في تاريخ حلب، ومصدره في ترجمته هو كتابنا هذا؛ «سراج المريدين»، قال - رحمه الله -: «خطيب المسجد الأقصى، كان وَرِعًا متدينًا، وله كلام حسن مُبين، أخذ عنه أبو بكر بن العربي الإمام، صاحب كتاب الأحكام، وذَكَرَه في أوَّل كتابه في سراج المريدين»، ثم ساق جُلَّ هاته الخطبة التي أوردها القاضي هنا، فأفادتنا في ضبط بعض حروفها، بغية الطلب: (١٠/٤٥٣٣)، ولم يذكر وفاته، وظهر لي أنه من جملة من استُشهد في دَخْلَةِ الصليبيِّين بيتَ المقدس في شعبان من عام ٤٩٢هـ، وقد ألمح الإمامُ ابنُ العربي إلى ذلك، قال ﷺ فيه: «شَيْخٌ عَكَفَ عُمْرَه على الوعظ والعبادة، وختم الله له بالشهادة»، ويأتي قوله هذا قريبًا.

(٢) في (ص): عَمَرَهُ الله بدعوة الإسلام مدى الأيام والليالي.

(٣) في (ز): إلى.

(٤) في (ز): أشهده، وهو تصحيف.

حتى أَبْرَزَه آيةً باهرة، وابتعثه[١] حُجَّةً قاهرةً، فقام بأَمْرِ الله وشقاشق[٢] الكفر هادرة، وبِحَارُه زاخرة، ودعاتُه ثائرة، فلم يَزَلْ يُجَادِلُ في الله بالأدلة المتناصرة[٣]، ويُنَاضِلُ عن دِينِه بالقواضب الباترة، وأَعَادَ العيشة الناضرة، وأَصْلَحَ أَمْرَ الدنيا والآخِرَة، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ما هَطَلَت السُّحُبُ المَاطِرَة، وجَرَتْ في البحار السُّفُنُ المَاخِرَة.

عِبَادَ الله؛ عَلَوْتُ على منبركم ولستُ بخَيْرِكُمْ[٤]، والله لو كانت الذنوبُ مَنْظَرَةً لكُنْتُ أقبحَكم، أو ملبسًا لكنت أخشنَكم، أو صارت خبرًا لكنت أفظعَكم، أو فغمت[٥] رائحةً لكنت أَتْفَلَكُمْ[٦]، فإن تكلَّمتُ فنفسي أخاطب، ولئن وعظتُ فإني للتوبة طالب، وفي الإنابة راغب، يدعو إليها النُّهَى، ويَصْدِفُ عنها الهوى».

ولم يبلغ في الخطبة هاهنا، حتَّى غَلَبَ على الخلق الأَنِين، واستولى عليهم الخَنِين، وسال الدَّمْعُ والذَّنِين[٧]، وارتفع الزَّعْقُ، وكَثُرَ الصَّعْقُ، وقُضِيَت الصلاة، وطارت الخُطْبَةُ في الأقطار كلَّ مَطَار، وسار بها الراكبُ

---

(١) في (د): بعثه.

(٢) في (د): شَقَائِقُ.

(٣) في (ز): المناصرة.

(٤) في (ز): منكم، وهو تصحيف.

(٥) في (ص): ختمت.

يقال: فَغَمَه الطِّيبُ: إذا سدَّ خياشيمه، تاج العروس: (٣٣/٢١٤).

(٦) في (د): أفعلكم.

(٧) الذنين: رقيق المخاط، تاج العروس: (٣٥/٦٦).

أينما سار، فأنزلتُها من قلبي تَالِيَةَ الإيمان، وأَضْمَرْتُهَا في نفسي حاجةً لم أقضها إلى الآن، ولكلِّ شيء أوان، مع اعتقادي أنها بِكْرُ كلامه، وفَضِيضَةُ خِتامه، حتَّى قرأتُ بدمشق على الشيخ أبي محمد [عبد الله بن] عبد الرزَّاق بن فُضَيل[1]؛ قلت له: أخبركم أبو عمرو المالكي: أنا محمد بن عبد الملك: أنا أحمد بن إبراهيم: أنا ابن هاشم: أنا الدَّبَرِي عن عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خطب فقال:«إن رسول الله ﷺ كان يُعْصَمُ بالوحي، وكان معه مَلَكٌ، وإنَّ لي شيطانًا يُغْوِينِي[2]، فإذا غَضِبْتُ فاجتنبوني، لا أُؤَثِّرُ في أشعاركم وأبشاركم، أَلَا فَرَاعُوني؛ فإن استقمتُ فأعينوني، وإن زِغْتُ فقَوِّمُوني»[3].

---

(١) المُحَدِّثُ المُسْنِدُ، عبد الله بن عبد الرزاق بن عبد الله بن الحُسَين بن فُضَيل، أبو محمد بن أبي القاسم الكَلاعي الحِمْصِي، ثم الدمشقي، (٤٢١-٤٩٢هـ)، روى عن جماعة من أهل العلم، وكان ثقة، ولم يكن الحديثُ من شأنه، كذا قال ابنُ صابر، وهو أَحَدُ الآخذين عنه، سمع منه ابنُ العربي «المُصَنَّف» لعبد الرزَّاق، و«الجَامِعَ» لمعمر بن راشد، ترجمته في تاريخ دمشق: (٢٩/٣٤٠).

(٢) في المنشور من الجامع (١٠/٣٣٦): يعتريني، وكذلك هي في غريب الحديث للخطَّابي: (٢/٣٥)، وتاريخ دمشق: (٣٠/٣٠٤).

(٣) الحديث في جامع معمر بن راشد: باب لا طاعة في معصية، المصنف (١٠/٣٣٦-الأعظمي)، ومن طريقه الخطَّابي في غريب الحديث: (٢/٣٥)، وهذا إسناد ضعيف، لجهالة من روى عنه معمر، ثم لكونه من مُرْسَلَاتِ الحسن البصري، ورُوي بألفاظ وطُرُقٍ أخرى لا تخلو من ضعف، والله أعلم، يُنظر: المسند للإمام أحمد: (١/٢٤٢).

قال حَمْدٌ[١]: وقال: «وُلِّيتُكم ولستُ بخَيْرِكُمْ»[٢].

قال أيضًا: وأخبرنا ابنُ الأعرابي: أنا أبو داود: أنا أحمد بن عَبْدَةَ: سمعتُ سفيان يقول: «بَلَغَنَا عن الحسن أنه ذَكَرَ قول أبي بكر ﷺ: وُلِّيتُكم ولست بخيركم، قال: بلى والله، إنه لَخَيْرُهم، ولكنَّ المؤمن يَهْضِمُ نفسه»[٣].

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي ﷺ: فعلمتُ أنه من هاهنا أَخَذَها، أو بأقوال السَّلف الصالح في هذا الغَرَضِ اقتدى ممَّن اهتدى بها، فإن أبا بكر أَوَّلُ من قاله، وأفضلُ من سَلَكَ هذا المسلك.

وقد قال قَوْمٌ في قوله ﷺ: «لا تخَيَّرُوا بين الأنبياء»[٤]، وقوله: «لا تُفَضِّلُوني على يونس بن متَّى، ونَسَبَهُ إلى أبيه»[٥]، وقوله - لمن قال له:

---

(١) هو الإمام الحافظ الحُجَّة، حَمْدُ بن محمد إبراهيم بن سليمان بن خطَّاب البُسْتِي، أبو سليمان الخطَّابي، كان إمامًا في الفقه والحديث واللغة، وطُبع من تصانيفه الكثير، وعليها عوَّل أهلُ الأندلس، قال أبو الحسن الوادي آشي في وسيلته: «مقتصرًا في ذلك على ما نصَّ عليه الشيخ الفقيه المحدث العلَّامة أبو سليمان الخطَّابي ﷺ، لمكانته عند العلماء من الإمامة في اللغات والحديث والفقه»، فهرس خزانة القرويين: (٤/٤٥)، وتوفي رحمه الله ببُسْتَ عام ٣٨٨هـ، ترجمته في: سير النبلاء: (١٧/٢٣-٢٧)، وطبقات الشافعية: (٣/٢٨٢-٢٩٠).

(٢) غريب الحديث للخطَّابي: (٢/٣٥).

(٣) غريب الحديث للخطَّابي: (٢/٣٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، برقم: (٢٤١٢-طوق).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: كتاب الأنبياء، باب قوله الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، برقم: (٣٤١٣-طوق).

يـا خيـر البريـة-: «ذاك إبـراهيم»[١]: «إن مخـرج ذلـك مِنْـهُ علـى رَسْـمِ التواضع»[٢].

وقيل: إنه قَبْلَ أن يُعَرَّفَ بمنزلته، ويُكْشَفَ له عن مرتبته، ويُطَالَعَ بعَلِيِّ دَرَجَتِه[٣].

وبهذا أقول.

ويَفْرِقُ بيني وبينهما:

أنَّ **الأوَّل**[٤]: لا نظير له في الأمة، بل لا تعدله جميعًا في ميزان الشريعة.

و**الثاني**[٥]: شَيْخٌ عَكَفَ عُمْرَه على الوعظ والعبادة، وخَتَمَ الله له بالشهادة.

وأنا بالإضافة إلى ذلك حَقِيرٌ، وأنَّى لي في رُجحان ميزاني بِقَدْرِ النَّقِيرِ؟ فَأَخْلُصَ إلى دار النجاة، وأكون من الهَلَكَةِ بمنجاة، ومع مُماشاة الزمان هَمْلَجَة[٦]، ومعاملة الأعمال بالنقود المُبَهْرَجَة، فلا بدَّ من قَرْعِ الباب قولًا وعملًا، ولا أتركُ نفسي للغفلات هَمَلًا، عسى الإِدْمَانُ القَرْعَ أن يُفْتِح، واللَّجاج والإلحاح أن يُبَلِّغَ ويُنْجِح.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، برقم: (٢٣٦٩-عبد الباقي).

(٢) أعلام الحديث للخطَّابي: (١٥٥٨/٣).

(٣) ينظر في ذلك: المُفْهِم لأبي العبَّاس القرطبي: (٢٢٨/٦-٢٣١).

(٤) هو: أبو بكر الصديق ﷺ.

(٥) هو: أبو علي الحلبي، خطيب المسجد الأقصى طهَّره الله.

(٦) الهملجة: حُسْنُ سير الدابة في سرعة، تاج العروس: (٢٨٥/٦).

مقدمة

وقد كنتُ أفضتُ في «أَنْوَارِ الفَجْرِ بمَجَالِسِ الذِّكْرِ» في أنواع العلوم الشريفة؛ من التوحيد، والأحكام، ومقامات الأعمال، وآفات القلوب والأحوال؛ ما سارت به الرُّكبان، وتعطَّر بأَرَجِه الزمان، وضَعُفَتْ عن تحصيله الأركان، وقُيِّد منه ما قُيِّد، وشُرِّدَ منه ما شُرِّدَ، واسْتَفَأَتِ الآفاتُ كثيرًا منه، ونَسَفَتْ أَرْوَاحُ النوائب جملةً ممَّا كُنَّا فَرَغْنَا عنه، وكان من أهم ما يُقبَل عليه؛ تقييدُ ما يتعجَّل الخلقُ منفعتَه، فخرج «الأَمَدُ الأقصى في أسماء الله وصفاته»، و«ناسخُ القرآن ومنسوخه»، و«أحكامُه»، و«قانونُ التأويل»، وكتابُ «العواصم»، و«القَبَسُ من أنوار مالك ﷺ في كتابه»، و«العِوَضُ المحمود»، وهو مُفَرَّقٌ عند الناس، وبقي عِلْمُ التذكير المتعلق بالأعمال والمقامات، وسَنَحَ خاطرُ خَيْرٍ في العَطْفِ إليه، وجنحت القواطعُ قليلًا عنه، فنسأل الله العون عليه.

وقد كنتُ وَقَفْتُ على كثير من كُتبه ممَّا جَمَعَهُ أَرْبَابُ الذِّكْرَى؛ الذين أوَّلهم المُحَاسِبِي[1]، .....

---

(١) الإمام الزاهد، والعالم المتفنن، شيخ الصوفية، له كتب كثيرة في الزهد وأصول الدين، وشُهِرَ بالرد على القدرية والرافضة، وكانت له معرفة بمذاهب النُّسَّاك، وله رواية وحديث، مع معرفة بالفقه، توفي عام ٢٤٣هـ، ترجمته في: الفهرست لابن النديم: (١/٦٥٨)، وطبقات الصوفية للسُّلَمي: (ص٥٦-٦٠)، وحلية الأولياء: (١٠/٧٣-١١٠)، وتاريخ بغداد: (٩/١٠٤-١١٠)، وسير النبلاء: =

وآخِرُهم القُشَيْرِي[١]، ورأيتُ بالثَّغْرِ من الفُسْطَاطِ للمُحاسبي كتاب «النوادر في مسائل الآفات»[٢]؛ عَظِيمَ الجِرْمِ، جَمَّ العِلْمِ، فنقلتُ منه -بعد مطالعتي له، ووُقوفي على أغراضه- مسألة الشُّهْرَةِ، بعد أن عَلِمْتُ من أين استقى، وكيف صار إلى ذلك المنزل وارتقى، ولولا أن في كلامه تطويلًا يُمِلُّ، وتَعَلُّقًا بضعيف لا يَحِلُّ، وسَاقِطٍ من الأَثَرِ يُخِلُّ؛ لكان بالغ[٣] الغاية في الباب[٤].

=(١٢/١١٠-١١٢)، وطبقات الشافعية: (٢/٢٧٥-٢٨٤)، وينظر في آثاره ومصنفاته المخطوطة والمطبوعة: تاريخ التراث العربي لسزكين: (١/٤/١١٥-١١٩).

(١) الإمام الأوحد، الفقيه المتكلم، الأصولي المفسر، الأديب النحوي، الشاعر الكاتب، لسان عصره، وسيد وقته، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومُقَدَّمُ الطائفة، (٣٧٦-٤٦٥هـ)، صنَّف في التفسير كتابًا كبيرًا، يوجد بعضه، واختصره ولده عبد الرحيم، ويوجد كاملًا في قريب من ثلاثة أسفار، وله «الرسالة»؛ عمدة القوم، ومرجعهم، وإليها المنتهى في معرفة الطريقة والتعلق بالحقيقة، نَظَمَها ابنُ الزيَّات في قريب من ألف وخمسمائة بيت، وسمَّى نظمه «تخليص الدلالة في تلخيص الرسالة»، ترجمته في: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور: (ق٩٨/أ)، وتاريخ بغداد: (١٢/٣٦٦-٣٦٧)، وتبيين كذب المفتري: (ص٢٧١-٢٧٦)، وسير النبلاء: (١٨/٢٢٧-٢٣٣)، وطبقات الشافعية: (٥/١٥٣-١٦٢).

(٢) لم أجده مذكورًا في كتاب آخر، ولم يذكره له مترجموه، فيكون هذا الذِّكْرُ من فوائد «سراج المريدين»، وقد اقتبس منه ابن العربي ونَقَدَهُ في مواضع من الكتاب، يأتي ذكرُها في الباب الثاني من الكتاب في الأسماء والصفات، عند اسم «المخلص».

(٣) في (ز): بالغًا.

(٤) قال الإمام ابن العربي منتقدًا تَعَلُّقَ الحارث بما لا يصح من الآثار والأخبار: =

وانتَدبنا الآن مُسترشِدين لربنا مُستوهِبين منه الهداية، من البداية إلى النهاية، حتى نَبْلُغَ الغرض، ونَقْضِيَ المُفترَض، إلى ذِكْرِ صفات العباد الذين اصطنعهم الله تعالى لخِدْمَتِه، واصطفاهم لجواره في جَنَّتِه، وأفاض عليهم من سَعَةِ رحمته.

وقد مَضَتْ منه أُصُولٌ في فُصُولِ «الأمد الأقصى»؛ لأن أكثر أسماء الله تعالى تَنْطَلِقُ حروفُها على العبد بالمَبْنَى والتأليفِ الذي ينطلق به على الله تعالى، وإن اختلفت المعاني، مُبَيِّنًا جلالة الله تعالى فيها، مُشِيرًا إلى كرامة العباد ومنازلهم فيها.

فنَسْرُدُ الآن «الصفات» على ترتيب «المقامات»، فما عَرَضَ فيها ممَّا ذُكِرَ منها بَنَيْنَا على ما سَبَق، فاستوفينا الكلام فيما لَحِق، وجَرَيْنَا في البيان إلى غاية المراد، مُسْتَنِّينَ سَبِيلَ السَّداد، والله المستعان.

* * * * *

= «وأطال القول في ذلك، وأفاد فيما أعاد، وجوَّد فيما طوَّل، لولا تعلقه بأحاديث ضِعَافٍ، وبناءُ الأصول عليها، فإذا وقف عليها علماءُ الحديث سَخِروا من ذلك وهَزَؤوا به، مع أنه لَقِيَ أحبار الدنيا فيه، كابن أبي شَيْبَةَ وغيرِه»، العارضة: (٦/١٥).

فوائد الكتاب المختصة به

اللَّفْظُ الفصيح، الحديثُ الحسَن والصحيح، التفسيرُ المُصِيبُ، الإِدْنَاءُ لبَعِيدِ الأغراض والتقريب، النص الجَلِيُّ، التأويل القَوِيُّ، الحكايات المختارة، الأمثال السيَّارة، الاستيفاءُ مع الاختصار.

* * * * *

المقام الأوَّل: الحياة الدنيا

إن الله سبحانه كان ولا شيء معه، ثم خَلَقَ الموجودات الأصول؛ من الأرضين والسماوات، والشجر والنبات والحيوانات، وأُخْبِرْنَا في الصَّحيح: «أن الله تعالى خَلَقَ آدَمَ آخِرَ الأيام؛ يوم الجمعة، آخِرَ الخِلْقة؛ طُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا في الهواء، ثم قال له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلِّم عليهم، فذهب فسلَّم، فرَدُّوا عليه، فقال له: هذه تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ»[(١)].

وثبت في الخبر عن أبي هُرَيرة: «قالوا: يا رسول الله، متى كنتَ نبيًّا؟ قال: وآدمُ بين الروح والجسد»[(٢)].

وفي لفظ آخر: «متى وجبت لك النبوة؟»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾، برقم: (٣٣٢٦-طوق)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير، برقم: (٢٨٤١-عبد الباقي).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث مَيْسَرَةَ الفجر ﷺ: (٢٧/١٧٦)، برقم: (١٦٦٢٣-شعيب)، وهو في: شرح مشكل الآثار: (١٥/٢٣١)، برقم: (٥٩٧٦)، والآجُرِّي في الشريعة: (٣/١٤٠٥)، برقم: (٩٤٣)، ولم أقف عليه باللفظ الذي ذكره ابنُ العربي عن أبي هريرة، والله أعلم.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، بابٌ في فضل النبي ﷺ، برقم: (٣٦٠٩-بشَّار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح، غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، جامع الترمذي - رواية ابن العربي -: (ق٢٤١/ب)، وفي نشرة بشَّار: «حسن غريب»، أثبتَ ما جاء في التحفة، ومال عمَّا في النسخ، وغريب هذا الصنيع، ولا ينبغي له أن يفعله، وما أثبتناه من نسخة عتيقة؛ من رواية الإمام ابن العربي، والله أعلم.

وفي لفظ آخر[١]: «وآدَمُ بين الماء والطين».

ويُخْلَقُ المَرْءُ وهو لا يَعْلَمُ[٢] شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، ثم عَلَّمَهُ ما لم يكن يعلم، وكان فَضْلُ الله عليه عظيمًا.

وابتدأَ الآدَمِيِّينَ بالنِّعْمَةِ قبل الخِدْمَةِ تكريمًا، ولمَّا علَّم الآدَمِيَّ خَلَقَ له القدرة ومَلَّكَه[٣]، ثم ابتلاه فيسَّره لِمَا قدَّره، ونَصَبَ له - وفيه - الأَدِلَّة، لِمَا يَسْتَقْبِلُه من حاله، وأخبره بالصحيح من مآلِه، وقرَّر له الأمر بأَشْكَالِه، وضَرَبَ له البيان[٤] بأَمْثَالِه، فمِنْ رَاكِنٍ إلى العاجلة في مَحَلِّ الاعتبار، ومِنْ سَابِقٍ إلى الآخِرة في دار القرار، فإن سَبَقَ استقرَّ ومَلَك، وإن رَكَنَ اسْتَغَرَّ وهَلَك.

وماذا يَغُرُّه من الدنيا دَارِ الباطل! وقد رأى أن يومه فيها كأَمْسِ الذاهب، وغَدُه لا يعلم أيُدْرِكُه؟ وقرناؤه قد اخترمتهم المَنُونُ، وصارُوا في خَبَرِ[٥] كان بعد يكون، وتيقَّن أن طويل العمر كقصيره بَوَاء[٦].

فمن عاش عامًا كمن عاش ألفًا ... فما العامُ والأَلْفُ إلَّا سواءُ[٧]

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وقال السخاوي: «لم نقف عليه بهذا اللفظ»، المقاصد الحسنة: (ص٣٢٧).

(٢) في (س): يُعَدُّ.

(٣) في (ص): ولمَّا علَّم الآدمي وأقدره وملَّكه.

(٤) في (ص): المثل.

(٥) في (ص): حيِّز.

(٦) في (ص): سواء.

(٧) البيت من المتقارب، ولم أقف عليه بعد البحث والتعني.

أنشدني أَبُو بَكْرٍ الفِهْرِي[١]: أنشدني أبو الفضل[٢] التَّمِيمِي: أنشدني الشريف الحِمَّاني لنفسه:

لمن أبني لمن أَسِمُ المَطَايَا ... لمن أَسْتَأْنِفُ الشيء الجَدِيدَا
إذا ما صار إخواني رُفَاتًا ... وصرتُ لفَقْدِهم فَرْدًا وحيدًا
أُعَاشِرُ مَعْشَرًا لهم شُكُولُ ... وأَشْكَالِي قد اعتنقوا اللُّحُودَا[٣]

[كائنة استباحة بيت المقدس]:

وإذا كان طويلُ العُمْرِ كالقصير، فالاجتهادُ أولى من التقصير، لقد عَبَدْنَاهُ في المسجد الأقصى - طهَّره الله - ثلاثين شهرًا، في ثلاثة أحوال،

---

(١) هو الإمام الحافظ، الفقيه العلَّامة، المفسر الزاهد، شيخ المالكيَّة، محمد بن الوليد بن محمد بن خَلَف الفِهْرِي، أبو بكر الطُّرْطُوشِي الصُّوفِي، شُهِرَ بابن أبي رَنْدَقَة، رحل إلى المشرق عام ٤٧٦، فحجَّ ودخل العراق ومصر وبيت المقدس، وأقام مدة في الشام، ونزل بالإسكندرية ودرَّس بها، قال ابن بشكوال: «أخبرني عنه القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، ووَصَفَهُ بالعلم والفضل، والزهد في الدنيا، والإقبال على ما يَعْنِيه»، وكانت وفاته عام ٥٢٠هـ، ومن كُتُبِه المنشورة: «سراج الملوك»، و«الحوادث والبدع»، و«مختصر تفسير الثعلبي»، وله كتاب في «انتقاد الإحياء»، يوجد السِّفر الأوَّل منه بالخزانة الملكية بمراكش، وذَكَرَ القاضي أبو بكر كثيرًا من أخباره في كتابه هذا، وهو من شيوخه الذين انتفع بصحبتهم، يروي عنه: «اختصار تفسير الثعلبي»، و«سنن أبي داود»، و«أخلاق رسول الله» لأبي حيَّان، و«مختصره»، وهو كتاب في جزء وسط، ترجمه القاضي عياض في الغنية: (ص٦٢-٦٤)، وابن بشكوال في الصِّلَة: (٢/٢١٠-٢١١)، والذهبي في سير النبلاء: (١٩/٤٩٠).

(٢) في سراج الملوك (ص٨٤): أبو محمد.

(٣) الأبيات من الوافر، وهي في سراج الملوك للطُّرْطُوشِي: (١/٨٤).

مع أُمَمٍ من العابدين والعاكفين والعَالِمين، نحوًا من ثلاثة آلافٍ مَعْلُومِين، حَصَدَتْهُمُ السيوف في غَدَاةٍ واحدة[١]، فأيُّ عَيْشٍ بعدهم يَطِيبُ؟ أم أيُّ أَمَلٍ يُستأنف؟

تنبيه:

ومن الثابت الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لو كانت الدنيا تعدل عند
١ [١/أ] الله/ جناحَ بعوضة ما سقى منها[٢] كافرًا شربةَ[٣] ماء»[٤].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «ما مَثَلُ الدنيا في الآخرة إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكم أُصْبُعَه في اليمِّ، فلينظر بم يرجع إليه»[٥].

---

(١) كان استيلاءُ الصَّلِيبِيِّين على بيت المقدس عام ٤٩٢هـ، وقُتِلَ في دَخْلَتِهم هذه آلافٌ من العلماء والصلحاء والزهَّاد، وآلاف أخرى من العامَّة؛ رجالًا ونساءً، وشيوخًا ووِلْدَانًا، رحمهم الله ورضي عنهم، ينظر: تاريخ الإسلام لابن الذهبي: (١٠/٦٦٩).

(٢) في طرة بـ (س): في خـ: فيها.

(٣) في طرة بـ (س): في خـ: جرعة، وما أثبتناه رمز له بصح.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، برقم: (٢٣٢٠-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث صحيح، غريب من هذا الوجه».

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث المُسْتَوْرِدِ بن شدَّاد رضي الله عنه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، برقم: (٢٨٥٨-عبد الباقي).

وهي كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «الدنيا[١] سِجْنُ المؤمن، وجنة الكافر»[٢].

وكذلك صحَّ عنه ﷺ أنه قال لابن عمر[٣]: «كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك في أهل القبور»[٤].

فكان ابنُ عمر يقول: «إذا أصبحتَ فلا تُحَدِّثْ نفسَك بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تُحَدِّثْ نفسَك بالصباح، وخُذْ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك عند الله غدًا»[٥].

قال الإمام الحافظ رضي الله عنه: وقد ضَرَبَ الله تعالى للدنيا مثلًا محسوسًا، له مَثَلٌ معقول، أَبرز به إلى العِيَانِ قِيمَتَها، وهي[٦] إذا حُبِسَتْ عن المرء جَرْعَةُ ماء طاهرة عذبة، حتى إذا احتاج إليها بَذَلَ فيها الدنيا بحذافيرها لو مَلَكَها، فإذا أَحْقَنَتْهُ[٧] قَذِرَةٌ نَجِسَةٌ بَذَلَ في إخراجها الدنيا بحذافيرها لو

---

(١) سقطت من (س).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الزهد والرقائق، برقم: (٢٩٥٦-عبد الباقي).

(٣) سقطت من (س).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في قصر الأمل، برقم: (٢٣٣٣-بشَّار)، وأصله في الصَّحيح للبخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، برقم: (٦٤١٦-طوق).

(٥) هو الحديث الذي تقدَّم، واللفظ للترمذي.

(٦) فوقها بـ (س): في خـ: هو.

(٧) في طرة بـ (س): في خـ: حقنته.

مَلَكَها، فأعلى[١] قِيمَتِها جَرْعَةُ ماء طاهرة، وقِيمَتُها بالحقيقة المحسوسة قَطْرَةُ بَوْلٍ نَجِسَة، وهي بالحقيقة المعقولة لا تَعْدِلُ جناحَ بَعُوضَة.

[تَقْسِيمُ الدنيا]:

وقد صحَّ عنه ﷺ - **تَقْسِيمُ الدُّنْيَا**[٢] -: «إنَّما الدنيا لأربعة نَفَرٍ، عبد رَزَقَه الله مالًا وعِلْمًا، فهو يَتَّقِي فيه[٣] ربَّه، ويَصِلُ فيه رَحِمَه، ويَعْلَمُ لله فيه[٤] حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعَبْدٌ رَزَقَهُ الله عِلْمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالًا[٥] لعَمِلْتُ بعَمَلِ فُلَانٍ، فهو ونِيَّتُه[٦]، وأَجْرُهُمَا عند الله سواء، وعَبْدٌ رَزَقَهُ الله مالًا، ولم يرزقه عِلْمًا، فهو[٧] يَخْبِطُ فيه بغير عِلْمٍ، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يَعْلَمُ لله فيه حقًّا، فهذا بأَخْبَثِ المنازل، وعَبْدٌ لم يرزقه الله مالًا ولا عِلْمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعَمِلْتُ فيه بعمل فلان، فله نِيَّتُه، ووِزْرُهُمَا سواء»[٨].

---

(١) في طرة بـ (س): في خـ: فإذًا أعلى.

(٢) سقطت من (س) و(ز) و(ص).

(٣) في (ص): به.

(٤) في (ص): فيها.

(٥) في طرة بـ (س): في خـ: لو كان لي مال.

(٦) في طرة بـ (س): في خـ: فهو بنيته.

(٧) سقط من (ص).

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه من حديث أبي كَبْشَةَ الأنماري رضي الله عنه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم: (٢٣٢٥- بشَّار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».